

إذا انطلقنا من معجم النص وبالضبط من حقل الإنسان الدلالي نجد أن كلمة تكررت ست مرات، فهي الأكثر وروداً بالمقارنة مع باقي مكونات هذا الحقل، إنها كلمة «أمة» مما يعكس أن الأمة وقضاياها هي الموضوع الهاجس لدى الشاعر ونسجل أنها وردت دائماً بصيغة التعريف، مرة معرفة «بال» وخمس مرات معرفة بالإضافة «أمتي».

هناك إذن حديث عريض في النص حول أحوال الأمة في الأبعاد الزمانية الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل. في الماضي كانت انطلاقاً تاريخ هذه الأمة من العقيدة الغراء بمكة ينشر عبير الإيمان ولواء التوحيد من أرض الرسالة والشهداء حيث استجاب الله لدعاء إبراهيم، من هذه البقعة الطاهرة حيث تتجاوز أماكن لها دلالتها الكبرى في ذاكرة كل مسلم: الصفا والمروة، الحطيم، زمزم، أركان البيت الحرام، حراء. استعرض الشاعر ما لقيه الرعيل الأول من محن مثل لها بال ياسر وبلال، كما ذكر لحظة النصر والفتح الإسلامي وبناء الحضارة الإنسانية العظيمة.

وبعد ذلك فتح الشاعر النوافذ على الحاضر مستعملاً عبارة دالة «إن الزمان قد استدار» ليشير إلى التحول الذي حل بالبشرية عامة وبالأمة الإسلامية خاصة، إذ صار «الوجود ضلالة» وهيمن منطق الصراع «العالمون تهارش وعواء» وعاد الشرك «كان لم يبرح أباً لهب ولا الطلقاء» فساد الجهل من جديد، وعميت القلوب وتعطشت البشرية إلى من يشد بعضها لتخرج من المستنقع الآسن، فمن أين يأتي الخلاص؟ إن المنقذ يظهر وراء ضمير كاف الخطاب المتصل وهو يتكرر كثيراً في النص: هديك، عهدك، سنالك، هواك، باسمك، عندك، يدك، لكحك، إليك، اتباعك، لك، أحبابك، دربك، ظلالك، فيك، ثم أيضاً وراء كلمات: مولاي، حبيبي، سيدي، الهدى. إن الكامن وراء الضمائر والكلمات هو شخصية الرسول ﷺ، والمقصود هنا منهج الرسالة الذي سيعيد للأمة رشدًا «والهدي هديك والمذاهب ضلة» لقد أوصلت المذاهب الوضعية البشرية إلى أفق مسدود، فمن حق هذه البشرية المعذبة أن تحن إلى المنهج الرسالي الذي سينقذها «فاسكب سنالك على الوجود كرامة»

ثألات في
فصيحة..

كاملية

الإسراء

للشاعر الدكتور حسن

الأمrani

بقلم:

حسن الإدريسي

إن الأمراني يتميز عن باقي شعراء المديح النبوي، فهو لا يمدح لأن الشعر مهما تفنن لن يفي بمدح من أثنى عليه ربّ العزة، فالشاعر عاشق «أنا عاشق والعاشق فيك فضيلة» والعاشق لا يبالي بمصاعب الطريق نحو المعشوق..

لاناقتي يؤذي مناسمها الحصى

عبر المفاوز لا ولا الأنضاء

إن الشاعر عاشق، متدل، مشتاق بسجود رؤيته للعبة الخضراء، وهو مباح مطيع، بعد هذا يتجه الأمراني صوب اللحظة المعيشة التي حركت هيامه وتعلقه بالمعشوق، إنها ليلة الإسراء والمعراج التي كانت «الطريق إلى الهدى» وبداية «نهاية الظلم والظلماء» فكانت النتيجة كرامة المشرّد والمحبة والصفاء بين الناس وكرامة الإنسان وشرعة العدل، فكان بطل الرحلة إلى السمّاء ناصراً المستضعفين ومساوئ الضعفاء وملجأ الفقراء والعدل العظيم الذي أذهل المذاهب والحكماء.

إن الشاعر قد اختار درب الرسول صلى الله عليه وسلم ونهجيه الرسالي، والتزم به بمسؤولية، ولكن اختياره جاء في زمن عصيب كثر فيه البلاء وتعددت المكارّه التي تحول دون النهج الرسالي، إنه حاضر الأمة الآن، لكن معالم الطريق وجدها الشاعر في نسبه الشريف وفي قلاع الدعوة التي أنارت له الدرب المظلم المليء بمحطات السواد، فالشاعر مطارّد بسبب إيساته كالناقة الجرباء، فهو متهم بالهرطقة والتطرف واتباع الهوى والفساد، ولكن الشاعر لا يضيره كل ذلك لأن تلك التهم مميزة الخطاب الاستكباري عبر التاريخ، بعد معاناة الذات ينتقل الأمراني

لفضح واقع الأمة المتردي حيث تحطم البناء الحضاري وساد الاستعباد «تأله الشاهات والعقداء» والتبعية، وانقلبت الموازين، فبعد أن كانت المواظبة على ارتياد المساجد علامة إيمان صارت الآن ظنة وشبهة، والنهي عن المنكر الواجب الإسلامي المقدس صار جريمة، والنصيحة «الدين النصيحة» صارت مرضاً، وحتى إذا التزم الإنسان الصمت وجهت له الأصابع، والحجاب الزي الشرعي للمرأة المسلمة اعتبر خطاباً سياسياً، وجهر الخطباء بالحق خيانة، وخلاصة القول أن الأمة أصيبت بداء الأمم وهو الصراع وعدم الالتفات إلى العدو الحقيقي، ولم يستفد من خيرات المسلمين إلا الغرباء، وأريق الدم وأهلك المستضعفون، وألغي الجهاد (السيف مرتّهن بمؤتمراتهم) وماتت الكلمة الشريفة وساد الخوف، إنها محطات سوداء في واقع الأمة لا تليق بمقامها الرسالي والحضاري تبعث في النفوس الإحباط وهنا يعبر الشاعر عن لحظة

الضعف

البشري

التي

تنتاب الإنسان مؤمناً كان أم غير مؤمن وعبر عنها الشاعر باستفهام خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى الاستبطاء.

يا جرح أمتي الثخين إلى متى

سيظل ينهب خافضيك الداء..؟

لكن الشاعر المؤمن لا يقف عند لحظة الضعف ويسلط عليها الأضواء كما هو ديدن الواقعيات الأرضية بل يتجاوز هذه اللحظة ليسلط الأضواء على لحظة القوة، لحظة الأمل والانتعاش التي تظهر في خطاب الشاعر الموجه إلى طائر الحرمين أمل المستقبل:

يا طائر الحرمين ما زالت لنا

رغم الجراح عزيمة قعساء

ويدعو الطائر إلى التحليق والاستعداد والانتفاضة والغضب على هدي الكتاب لإعادة العزة والإياء وهكذا نسجل أن استحضار شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وليلة الإسراء والمعراج ليس استحضاراً تاريخياً بل استحضار يستهدف ربط الماضي بالحاضر والمستقبل، الماضي الذي يمثل لحظة الرسالة والعزة والحاضر الذي يمثل لحظة الضعف والسقوط الحضاري، والمستقبل لحظة الانتعاش وإعادة الأجداد، وهكذا كان البناء الفني دائرياً على مستوى الزمن ويمثل الشاعر إحدى خصائص

الواقعية الإسلامية في عدم اكتفائه بوصف الواقع بل تقوم أيضاً بفصحته وتعريف تناقضاته «المساجد ظنة» «النصيحة جرم».. وهذا الوضع يستهدف بث روح التغيير.

وللتعبير عن تجربته الشعورية، وظّف الشاعر عدة تقنيات، فعلى مستوى المعجم تتعدد الحقول الدلالية ففيما يتصل بحقل الإنسان نجد أعلاماً خاصة هي: إبراهيم، آل ياسر، بلال، الحبيب، وشثل جبهة الإيمان والابتلاء والصبر والنصر، وأبو لهب والطلاق رموز الشرك والضلال، إلى جانب أعلام عامة: رسل الهدى، الشهداء، طلائع الفتح، الضعفاء، الفقراء، الخطباء، المسلمون، الشرفاء في مقابيل الملوك، العظماء، الاشتراكيون، الفرقاء، الكبراء، الشاهات، العقلاء، المخبرون، الأعداء، البعداء، الغرياء، الدخلاء..

بالنسبة لحقل الطبيعة هناك أعلام الأماكن: مكة، البطحاء، الأرض البتول، الصفا والمروة، والحطيم، وزمزم، والقبة الخضراء وهي أماكن مرتبطة بالتاريخ الرسالي، ولها مكانة في قلوب المسلمين إلى جانب فاس والشام والفسطاط وصنعاء معاقل العلم والشريعة التي تنكرت لها اليوم لا فاس تعطي للشريعة حكمها

لا الشام لا الفسطاط لا صنعاء وهناك أماكن عامة كالصحراء والبيداء «وادي غير ذي زرع» مهبط الروحي إلى جانب الرمضاء رمز التعذيب، وهناك بعض الكائنات في النص كالناقة راحلة الرحلة نحو الحبيب، وهي ناقة متميزة لا تتأذى بالحصى ولا بالفيافي ولا يصيبها الهزال، لقد اختار مركباً قوياً يتحدى الصعاب

كما وظف الناقية أيضاً لوصف وضعيته في زمن الاستضعاف فهو مطارّد بسبب عقيدته كالناقة الجرياء، ووظف أيضاً «الورقاء» رمزاً للرغبة في الطيران نحو الحبيب المصطفى «شوقي الجناح وهمتي الورقاء» ثم ذكر الماء القراح رمزاً للكدر الذي أصاب خيرات الأمة فانتشر الظلم رغم وفرة الخير، ولم تجن الأمة إلا الفتات لأن المستفيد الأكبر هو الغريب / الغرب / الاستعماري، كما يذكر عنصر الحجارة الذي يرمز إلى انتفاضة أطفال بلد الإسراء:

وإذا حراب الخوف قادت ألسنا
نطلقت هناك حجارة خرساء
كما استعمل «السنا» رمزاً إلى البركات التي ستحل بالأمة إذا اتبعت النهج النبوي «فاسكب سنك على الوجود كرامة» ولا ننسى طائر الحرمين رمز غد الإسلام القريب الذي لن تنال منه الأعاصير حيث يدعو للقوم والانتفاض والتحديق في وجه الشمس رمز العزة.

بالنسبة للأشياء المصنوعة، هناك ما يرمز إلى ما هو سلبي في حياة الأمة: السياط، الدم، المشائقي، الفتات، الحراب، وما يرمز إلى العزة، كالبيرق والمركب.

أما الزمن فهناك زمن خاص هو ليلة الإسراء والمعراج المثير الذي نتج عنه الخطاب الشعري ويوم الحساب زمن المساواة بين العظماء والمستضعفين إلى جانب زمن عام: التاريخ الذي تكرر ويشير إلى المجد والعلو والزمن والزمان ويستعمل للدلالة على الدورة الحضارية.

تركيبيًا: هناك ٤٤ فعلاً ماضياً و٤٣ فعلاً مضارعاً و١٣ فعل أمر مع ١٦ فعلاً منسوباً إلى ضمير المخاطب

و٥ أفعال إلى ضمير المتكلم والباقي وهو كثير لضمير الغائب، وهذا لا يدفعنا إلى القول بهيمنة الماضي، فزمن الأفعال لا ينبع في الخطاب الشعري من الصيغة الصرفية بل من الزمن الداخلي فقد تدل صيغة الماضي على المستقبل مثلاً، فالأمراني استحضّر في النص الأبعاد الزمنية الثلاثة سعياً منه لتحقيق الاستمرارية الحضارية.

أما بالنسبة للضمائر التي نسبت إليها الأفعال فإننا نجد الشاعر قد يعبر عن المتكلم بقناع الغائب أو المخاطب، أما الأدوات فالغالب هو حرف العطف «و» وهو أداة الوصل بين الجمل مما يعكس ترابط الجمل لكونها وليدة لحظة خالدة «الإسراء والمعراج».. وهناك «قد» قبل الماضي إلى جانب «إن» و«اللام» حروف التوكيد التي تعكس يقينية الخطاب عند الشاعر ومحاولته إزالة التردد والوهم في النفوس بتلك الأدوات.

تسود الجمل الخبرية في النص وتأتي بعدها من حيث الأهمية الجمل الإنشائية، إذ هناك نهيان وأربعة استقنمات وأسلوب النداء الكثير وأسلوب الأمر خمس مرات وكلها خارجة عن مقتضى الظاهر ويغيب التمتني إيماناً من الشاعر أن الطموحات ستتحقق وتعود للأمة عزتها لأن التمني هو طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله، وهناك ظواهر أسلوبية أخرى كالتفضيل «نداء إبراهيم أُندي من بكاء الناي» و«يظل تحت القهر أكبر منهم».. و«التقديم والتأخير» «كما فضل السحاب الماء» والاستثناء «ما يبرق التوحيد إلا نفحة علوية».

تحضر تقنية التناصر بالتكثيف حيث يركز الشاعر على الإحالات معتمداً على الجانب المشهور منه دون ذكر التفاصيل ليضرب حالاً معبوده، فهناك نداء إبراهيم في البيت الثالث ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (١).

وأيضاً في قوله «وانشر سناك فالقلوب هواء» يستحضر قوله تعالى ﴿وَأَفئدتهم هواء﴾ (٢) وفي قوله «خشب مسنذة لها إيماء» تناص مع قوله تعالى في سورة المنافقين ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ (٣).. وفي قوله:

قد جاءهم ما فيه مزدجر من الأنبياء لو نفعتهم الأنبياء استحضار لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (٤). كما وظف بعض الأحاديث النبوية بإيجاز كقوله:

ويقال صبراً آل ياسر يالها من دعوة تندی لها الصحراء «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»

كما وظف حديث القصعة: لكن أقوامي وإن لم تحصهم عدداً فهم - واحسرتاه - غناء وذكر صرخة «بلال» تحت التعذيب: «أحد أحد»

ويظل تحت القهر أكبر منهم (أحد) تنشر عطرها الجوزاء إلى جانب القرآن الكريم والحديث النبوي، هناك تناص مع الشعر القديم ففي قوله

مالي أطارد في البلاد كأنني بين الجمال الناقة الجرباء يحضر طرفة بن العبد في قوله: «وأفردت أفراد البعيد المعبد»، أي الأجر

وهناك استحضار لشوقي في بيته: ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء وإن أحدث تغييراً في نظام البيت: شوقي الذي جلاه شوقي هاتفا

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمن تبسم وثناء والشرك منكسف به ضراء وعارض شوقي القائل: «الاشتراكيون أنت إمامهم» فقال:

الاشتراكيون لست إمامهم وتخرص ما أول الفرقاء وهذه المعارضة تعكس تطور الفكر الإسلامي المعاصر ووصوله إلى مرحلة الاستقلال الحضارية بعد مرحلة رد الفعل والانبهار والتوفيقية حين وجدنا بعض المفكرين يستعمل «اشتراكية الإسلام».. فهذا هو الأمراني يبين تميز الإسلام: لكنك العدل العظيم وقد مشى

بين الوري فتحرير الحكماء فلا مجال للمقارنة بين نظام وضعي بشري ناقص ومنهج رسالي سماوي متكامل.

زواج الأمراني بين التقرير والإيحاء فتحضر عبارات مباشرة تعري مشاهد السقوط في الواقع إلى جانب عبارات إيحائية مثل: التاريخ زين صدره، نداء إبراهيم أندي من بكاء الناي، تبعث شجوه القمراء، العاملون تهاوش وعواء، شوقي الجناح وهمتي الورقاء، وكأنها التاريخ بيضه فارغ.

مالي أطارد في البلاد كأنني

بين الجمال الناقة الجرباء.. فهو يمزج بين الاستعارة والتشبيه إلى جانب قناة الرمز التي سبق ذكرها.

إيقاعياً: هندسة النص عمودية عبرت بجلاء عن مهارة الأمراني الإبداعية، إنه يتقن المعمارين العمودي والمنطليق. فالشاعرية هي شرط الإبداع الأول أما القلب التعبيري فمجرد إطار، وكل موضوع يختار له الشاعر الإطار الذي يلائمه، ولقد جاء هذا النص على البحر الكامل وهو من البحور الطوال ذات النغم الوقور ويتميز بالجزالة وحسن الاطراد كما يرى «حازم القرطاجني» ويعتبره «محمد عبدالعزيز الدباغ» متلائماً مع الإحساسات الحزينة ومنسجماً مع الأساليب الخطابية وتلمس فعلاً إحساسات حزينة في هذا النص بسبب واقع الأمة المتردي إلى جانب نزعة خطابية تعري تناقضات الواقع الذي يصادم القيم الرفيعة الرسالية، كما يوجد تصريح في البيت الأول «البطحاء - شفاء» مما يدل على أن النص نظم في زمن واحد يدل على ذلك غياب كثرة التصريعات وروي النص هو الهمزة الذي هو من بين أنواع الروي الأكثر وروداً في الشعر العربي ويذكرنا بـهمزية الإمام البوصيري ومعارضة أحمد شوقي لها، وقافية البيت الأول «حاء» من النوع المتواتر الشائع في الشعر العربي



١ - سورة إبراهيم - آية ٣٦ - ٣٧.

٢ - سورة إبراهيم - آية ٣٤.

٣ - سورة المنافقون - آية ٤.

٤ - سورة القمر - آية ٤.